ISSN 1412-226x

الزهراء

نصف سنوية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية والعربية

في هذا العدد

- طبيعة التربية الدينية الإسلامية واشتقاقها لبناء المنهج المدرسي
- ماهية العرفان الإسلامي
- إحياء اللغة العربية من الوعي بالتراث إلى الرؤية المستقبلية
- أهمية السياسة الشـــرعية من منظور القرآن
- قضية الفصواصل في القرآن الكريم

السنة الثانية عشرة العدد 2 1436هـ/2014م

ISSN 1412-226x

A L - Z A H R Ä '

الزهراء

نصف سنوية محكمة تصدر عن كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا، تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية والعربية

A refereed academic twice yearly, published by Islamic and Arabic Studies Faculty,
the State Islamic University (UIN) Syarif Hidayatullah Jakarta,
and concerned with Islamic and Arabic research and studies

Volume 12, No 2, 1436 H/2014 M السنة الثانية عشرة، العدد 2، 1436هـ/2014م

رئيس التحرير
أحمد دين أحمد طهار

سكرتير التحرير
محمد خير المستغفرين

منفذو التحرير
إمام سوجوكو غلمان الوسط أحمدي عثمان

هيئة التحرير
عثمان شهاب ويلي أوكتافيانو حمكا حسن

التوزيع والتسويق
محمد غوروه

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير:
Fakultas Dirasat Islamiyah Universitas Islam Negeri (UIN) Syarif Hidayatullah,
Jl. Ir. Juanda No. 95 Ciputat Jakarta 15412 Indonesia

العنوان الإلكتروني:
fdiazhar_uinjkt@yahoo.com

عنوان المجلة على شبكة الإنترنت:
www.fdi.uinjkt.ac.id

المحتوى

ᘓ حديث الزهراء

طبيعة التربية الدينية الإسلامية واشتقاقها لبناء المنهج المدرسي 5
محمد شيرازي دمياطي.....

ماهية العرفان الإسلامي
15
السيد إسحاق الحسيني الكوهساري.....

إحياء اللغة العربية: من الوعي بالتراث إلى الرؤية المستقبلية
37
أحمدي عثمان.....

أهمية السياسة الشـرعية من منظور القرآن
53
أحمد رضا.....

قضية الفصواصل في القرآن الكريم
90
محد رفقي أرقزا.....

إحياء اللغة العربية: من الوعي بالتراث إلى الرؤية المستقبلية

أحمدي عثمان
كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا

Abstract
This article tries to present the issues shown by Bintu as-Syathi', which is related to language as it relates to the Arab community in the contemporary life. One of these issues; the issue of literary discourse and new values that can reveal by reading Arabic literature, and the issue of reviving the Arab heritage and its advantages in contemporary life, and the issue of language and nationalism and its strong relationship among those, and the issue of the Paschal and slang in the floklore, that which one is better to practice for Arabic leterary. All of those issues are important which must be attended by every one who want to revive the Arabic language. This revival in the Bintu as-Syathi' opinion must start from an awareness of the heritage as a basis for starting to the future of Arabic language.

الكلمات المفاتيح: إحياء اللغة (reviving of language)، الوعي بالتراث (awareness of the heritage)، الرؤية المستقبلية (vission)، الخطاب الأدبي والقيم الجديدة (literary discourse and new values)، اللغة والقومية (language and nasionalism)،لغة الأدب الشعبي (language of floklore).

أكد كثير من المفكرين والنقاد العرب بأن القرن العشرين الماضي كان مطلع نهضة لغوية وأدبية عربية. وهذه النهضة ينبغي أن يصاحبها تخطيط هادف واع من قبل المفكرين بصفة عامة واللغويين والأدباء بصفة خاصة. فمن خلال هذا التخطيط تسير الجهود نحو الأهداف المنشودة لهذه النهضة اللغوية والأدبية.

إن هذا التخطيط لا يعني الرؤية المستقبلية فقط لهذه اللغة واستبعاد كل قيمها التاريخية والتراثية. فالتخطيط المقصود لا يهمه جانب البحث والدراسة في كل ما تحتاجه في المستقبل، لكن يهمه أيضا الاهتمام والوعي بالتراث والتاريخ العربيي نفسه وبذل الجهد للعثور على قيم جديدة، بالإضافة إلى محاولات إيجابية مستمرة في سبيل إصلاح الحياة اللغوية وإزاحة عللها في سبيل سلامة الكيان الجمالي والشعور الذاتي والجد الحيوي والسمو العقلي والوجداني. وقد أشار الأستاذ الرائد أمين الخولي إلى أن هذه الفترات إنما هي فترة التأسيس والتصحيح لمناهج التفكير، تصحيحا يجعل النهضة الفكرية تقوم على أساس متين من إدراك طبائع المواد التي تدرس، وما يتعلق بعملية

النفي فيها والإثبات، ثم القيام بتصحيح ما في قديمها من الأخطاء، والمحاول على الاستفادة منالتقدم العقلي الذي بلغته الثقافة الإنسانية[1]

هذه المقالة تحاول أن تطرح القاضايا التي أثارتها بنت الشاطئ[2]، التي تتعلق باللغة من حيث صلتها الحتمية بالحياة التي يعيشها المجتمع العربي في وجوده المعاصر[3] ومن هذه القضايا؛ قضية الخطاب الأدبي والقيم الجديدة التي تناولتها بنت الشاطئ في كتابها: "قيم جديدة للأدب العربي"، وقضية إحياء التراث في كتابها: "تراثنا بين ماض وحاضر"، وقضية اللغة والقومية التي أشارت إليها في أماكن متفرقة من مؤلفاتها، وقضية الفصحي والعامية في لغة الأدب الشعبي في أيهما أولى بالأداء لهذا الأدب العربي.

الخطاب الأدبي والقيم الجديدة

ينبغي على كل مفكر وناقد عربي أن تكون له جهود تعني بالدعوة إلى تجديد الأفكار والرؤى الأدبية والنقدية من أجل الوصول إلى الفهم المستقيم المستنير للأدب والنقد العربي عبر الزمن. والتجديد هنا يعني الاجتهاد وعدم التقليد والجمود. ذلك لأن الأحكام الأدبية والمقاييس النقدية التي خلفها لنا القدامى من مؤرخي الأدب ونقاده، إنما تعرضت لمؤثرات الظروف والحياة التي كانوا يعيشونها، فمن غير المعقول أن نتبني هذه الأفكار كلها دون البحث والدراسة والمناقشة، لأننا اليوم في عالم آخر غير عالمهم وفي ظروف وحياة أخرى تختلف فيها المؤثرات عما هي هناك، خاصة وأن موضوع الاجتهاد وعدم التقليد مطلوب دائما بصرف النظر عن المسافة الزمنية التي بيننا وبين هؤلاء. وكان الأدباء والنقاد العرب قد بدأوا يدعون إلى التجديد الفكري منذ عصور مبكرة وهو أقرب منا عهدا من مهد التراث العربي.

إن أهمية الموضوع جاءت لمتطلبات الحياة العربية العصرية حيث يدخل الأدب العربي مرحلة جديدة وتحديات جديدة. فالأولى بالعناية –إذن- ونحن ندخل ميدان المعركة هي تجديد الدرس الأدبي من بعض قيم ومقاييس ناقصة وخاطئة احتكمت فيه زمانا وسيطرت ولا تزال تسيطر على فهمنا للتراث العربي وتوجه ذوقنا له وإدراكنا لوظيفته في الحياة ومكانته منها. قالت بنت الشاطئ: "ولن ينهض الأدب بهذا الدور الجليل في المعركة، ما لم نتخلص من الرواسب التي شوهت تراثنا العربي، وما لم ننج ذوقنا له من سيطرة الأذواق التي ورثناها من مختلف عهود الضعف والانحطاط، بل لن تقوم للأدب العربي فينا قائمة ما لم نهدم الأسوار التي عزلت أبناءنا وأجيالا قبلهم عن أجمل ما لنا من تراث فني، ولم نمح الظلال التي حجبت عنهم بهاءه حين فرضت عليهم نماذج بعينها من الشعر راجت في ظل الطغيان، وأشخاص بذواتهم من الشعراء والكتاب يدينون بشهرتهم وذيوع صيتهم لتعلقهم بركاب حكام كانوا في عزلة عن الشعوب، وإلى تمرغهم فوق بلاط ذوي السلطة من كانوا، ولو كان هذا البلاط يكتم أنغاس الرعايا المحكومين ويهدد لهم من حقوق وحرمات، وإلى اليوم ما نزال نفرض تلك النماذج وأولئك الشعراء والكتاب على أبنائنا، ثم نزيد الطين بلة فنجعلهم يتذوقون النصوص المختارة بذوق تقليدي موروث، ويزنون الشعراء والكتاب بموازين انحدرت إليها من نقاد عاشوا تحت ضغط الحكم والاستبدادي، وتنغسوا في جوه."[4]

أما نقطة الانطلاق في هذه الجهود فهي محاولة بنت الشاطئ في تقييم مفهومين شاع استخدامهما في الأدب والنقد العربي. المفهومان هما: التراث العربي والتفسير أو التحليل لهذا التراث. في البداية فرقت بنت الشاطئ هذين المفهومين وأشارت إلى أهمية هذه العملية: "ونقطة الانطلاق في هذه المحاولة هي التفرقة بين تراثنا الأدبي وبين أحكام مؤرخيه وآراء ناقديه. نقصد بالتراث النصوص الأدبية التي قاومت عوادي الزمن ووصلت إلى أيدينا وهي مرجعنا الأول، إليها نحكم ومنها نستخلص القيم وبها نفصل فيما لعله يشتجر من خلاف بيننا وبين النقاد. ولا تناقض هنا بين اطمئناننا لما اعتمده علماء الشعر الأقدمون من تراث العربية الأدبي، وبين التزامنا بما لهم فيه من آراء وأحكام ومقاييس نقدية. فهؤلاء الخبراء حجة في المادة الأدبية من نصوص وأخبار، وهم الذين جمعوا تراثنا الأدبي وحفظوه ودونوه. أما إذا جاوزنا النص الأدبي والخبر التاريخي مما هو مادة الدرس إلى التذوق والحكم والتقدير والتقويم، فإن الموقف قد يختلف، لأن مرجعه هنا ذوق العصر وشخصية الناقد وعقلية البيئة ومزاجها."

وفي نفس هذا المعنى أو قريب منه، طرح أحد الباحثين الفرض في معالجة بحثه عن الشعر العربي القديم والنقد الجديد، وهو فرض يقوم على أن الشعر العربي القديم شعر غامض وبواح في آن، خلافا لما شاع في أوساط أكثر الدارسين. ومصدر غموضه ليس ألفاظه وتراكيبه، بل موضوعاته وأغراضه أو رموزه بعبارة أدق. ولذا فهو صالح –ككل شعر عظيم- لقراءات متعددة تفك رموزه ليبوح بثرائه الباهر. ولكن هذه القراءات مشروطة بشروط شتى تعصمها من أن تكون لغوا أو هذيانا.[5] وقد حاول الباحث نقد مفهوم الأغراض والرموز أو ما سماه النقاد التقليديون بالغرض الشعري أو مناسبة القصيدة، حيث قال: "ومفهوم أغراض الشعر مفهوم بائس وضرير بل لعله أبعد مفهومات نقدنا القديم عن الصواب وأشدها إيغالا في المغالطة وأقواها تعبيرا عن النظرة الجزئية الضيقة وقصر النظر. وقل مثل ذلك قريبا منه في أمر المطالع والخواتم وطرق التخلص من غرض إلى غرض –على حد تعبيرهم وتسميتهم."[6]

وقبل الدخول في تفاصيل هذه القيم، قدمت بنت الشاطئ ملاحظتين هامتين:

- الأولى: ضرورة العودة إلى القديم البعيد للتعرف على الأصول النقية والقيم الحرة للأدب العربي. فالماضي يمثل الجذور التي تعود إليها الحياة العصرية. وهذا الماضي هو العصر الجاهلي الذي لا بد أن تنطلق منه رحلة اكتشاف واستخراج القيم الجديدة.
- الثانية: إن دراسة الأدب لا بد أن تلم كل الجوانب والعوامل كالسياسة والزمنية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والإقليمية والمستويات الحضارية والفكرية، ومن هنا كان الخطأ السائد في دراسة الأدب من خلال تقسيمه عصورا زمنية تتبع العصور السياسية دون الاهتمام بالعوامل التي ذكرناها.[7]

ومن القيم التي استخلصتها بنت الشاطئ من بيئات الشعر الجاهلي هي ضرورة التمييز بين شاعر القبيلة وشاعر البلاط والشعراء الصعاليك. فمن خلال هذا التمييز بدت فروق جوهرية في وظيفة الشعر ومكانة الشاعر وفروق فنية ذات خطر في ذاتية

الشاعر الفردية والجماعية، وفي مكانته ورسالته، وفي فنون الشعر التي تروج في بيئة أخرى، مؤكدة ما بين الفن والحياة من حتمي الصلات.[8]

أولا: شاعر القبيلة

هناك مواجهة بين مقولة "الشعر تجارة العرب"، ومقولة "الشعر في المجتمع العربي الأصيل سيادة وقيادة". الأولى مقولة سجلها ابن رشيق في كتابه "العمدة في صناعة الشعر ونقده" وهي مقولة تناقلها النقاد من قديم. والمقولة في رأي بنت الشاطئ إحدى القيم والمقاييس الخاطئة في الدراسة الأدبية والنقدية، وكانت المقولة الثانية بمثابة تفسير صحيح لوظيفة الشعر ومكانة الشاعر وذاتيته في المجتمع العربي الأصيل. قالت بنت الشاطئ "كان الشعر إذ ذاك سلاحا من أمضى الأسلحة في حياة لا مكان فيها إلا للقوى الغالب. وكان اعتزاز القبيلة بشاعرها أكبر من اعتزازها بالفارس الذي يحمي العمي بسيفه. وهو وضع قضت به ظروف الحياة في العهد الجاهلي ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة وجدانية، تبث في أبنائها روح المروءة والنجدة وإباء الضيم وتحدوهم في صراعها من أجل الوجود والبقاء ... وإنما بلغ الشعر هذه الدرجة من الأهمية والخطر لأن المجتمع العربي كان يضع الشاعر في مكانة ما بعدها مكانة، فكانت وظيفته في القبيلة من خطر وظائف الزعامة والقيادة."[9]

وفي صدد البحث والدراسة في وجهات نظر ابن قتيبة، قال أحد الباحثين "ولست أعتقد أن هذا التفسير الذي سجله ابن قتيبة يقنع أحدا، أو يقع في النفوس موقع الاطمئنان، فهو يجعل وظيفة الشعر محصورة في التكسب، يجعل قصيدة المدح بنية منعزلة مغلقة لا تكاد تتصل بالظواهر الاجتماعية الأخرى إلا بأوهى الأسباب –وليست قصيدة المدح كذلك-، ويجعل الشاعر ذاتا منكفئة على نفسها تصم أذنيها وتغض عينيها وتوصد أبواب القلب والروح وتنكمش منغلقة في شرنقتها، فتنقطع عن حركة المجتمع وقضاياه ومخاوفه وأحلامه وشروطه التاريخية –وليس الشاعر الجاهلي كذلك-. ويبدو من العبث حقا أن يتحدث المرء عن الشعر ما لم يكن مزودا بمفهومات شمولية عن الحياة والإنسان وقضاياه الكبرى وموقع الفن من هذه الحياة ووظيفته فيه."[10]

إن الفيصل في هذه المواجهة يكون بطرح قضية ذاتية الفن بمعنى أن يكون الفن معبرا عن ذات صاحبه تابعا لوجدانه. فالشاعر العربي –عند بنت الشاطئ- لا يهدد ذاتيته كما ادعى به بعض النقاد –وهو ليس كذلك-. إن شاعر القبيلة له ذاتيته وله التزامه بأن ينطق بلسان الجماعة. قالت بنت الشاطئ "لو تحررنا من سيطرة الفكرة المحكمة فينا لوجدنا أن المعنى الحق لشاعر القبيلة هو أن ذاتيته لا تظهر منعزلة عن جماعته، فهو فرد في جماعة تؤهله موهبته لأن يشغل فيها وظيفة ذات خطر، هي وظيفة الشاعر العام."[11]

وقد أكدت هذا الموقف ظواهر فنية في الشاعر الجاهلي، صاغتها بنت الشاطئ على هذا النحو: (1) إن شاعر القبيلة قلما يتحدث بضمير المفرد إذا افتخر، وإنما يتحدث بضمير الجماعة التي يمثلها ويعتز بانتمائه إليه ويرى مجده من مجدها وعزته في عزتها. (2) الاعتذار فن غير شائع عند شعراء القبائل، لأن الشاعر إذا أخطأ التزمت

القبيلة كلها بخطئه، فلم تلجئه إلى أن يقف موقف المعتذر الذليل. (3) المدح عند شاعر القبيلة لا يصدر عن انفعال بمعروف أسداه المدح إلى الشاعر فردا، وإنما ينفعل فيه الشاعر بفضل أسداه الممدوح إلى قومه. (4) من أجل هذا كانت القبيلة تعد شعر شعرائها ملكا عاما لها وتراثا قوميا لأبنائها.[12]

ثانيا: الشعراء الصعاليك وشعراء البلاط

وجه بعض النقاد الدعوى التي تقول: إن الشعراء الصعاليك وشعراء البلاد قد وجدوا أنفسهم واستردوا ذاتيتهم وأخلصوا لفنهم عند خروجهم إلى البيئة الأخرى خارج سلطان القبيلة. والعكس صحيح عند بنت الشاطئ، حيث تكون الذاتية الجماعية لهؤلاء الشعراء الصعاليك لم تزل محفوظة من خلال أشعارهم التي تعبر عن علاقتهم بمجتمعهم. فإهمال هذه الطبقة من التراث الأدبي والنقدي –كما فعله بعض النقاد، ومنهم ابن سلام- إهدار لجزء متميز من هذا التراث. إذن هناك حقائق وقيم لا بد من اكتشافها في هذه الظاهرة؛ ظاهرة الشعراء الصعاليك. وقد قدمت بنت الشاطئ ملاحظتين في هذا الموضوع، وهما:

- الأولى: إن شعر هؤلاء الشعراء يمثل الفطرة العربية ويعبر عن معاناة وجدانية لمحنة الغربة والتشرد ويعكس صورة مثيرة من واقع حياتهم المحرومة من أنس الجماعة.
- الثانية: سقوط الدعوى التي رفعها بعض النقاد بأن الشعر تجارة. وذلك لأن الشعر عند هؤلاء الصعاليك إنما كان متنفسا لشجنهم وراحة لقلوبهم المضناة بالغربة وتعبيرا عن وجدان مثقل الهموم وصدى لمغامراتهم المستهينة بحياة مضيعة، تنتهي بموت في متاهة الغلاة بعيدا عن الأهل والأحباب. ولو شاءوا أن يتاجروا بشعرهم لوجدوا لبضاعتهم مشترين، ولكن فطرتهم العربية الحرة أبت عليهم أن يرضوا بهوان المساومة على ألسنتهم ووجدانهم في سوق البيع والشراء.[13]

هناك قاسم مشترك بين الشعراء الصعاليك وبين شعراء البلاط لأنهما خرجا إلى بيئة أخرى خارج سلطان القبيلة. كما أن هناك تباينا بعيدا ومفارقة شديدة بين شعراء البلاط من جانب، وبين شعراء القبيلة والشعراء الصعاليك معا من جانب آخر، بأن الجبهة الأولى تتمتع بالذاتية الفردية والجماعية، وأن الشعر سيادة وقيادة عند القبيلة وتعبير عن الفطرة والوجدان عند الصعاليك. وهذه المعاني التي ذكرناها غابت كلها عند شعراء البلاط. فالذاتية ضاعت والشعر عندهم تجارة وأموال. قالت بنت الشاطئ: "نجد الشاعر في البلاط لا يعدو أن يكون تابعا أجيرا. وربما عانى من الخضوع والهوان ما يهدر إنسانيته إلى حد الإقرار بالعبودية ... هكذا نرى أن ذاتية الشاعر لا يهددها حقا أن ينسلخ من الجماعة ويبيع كرامته ولسانه لفرد يدفع الثمن ويستعير وجدان مالكه ليقول ما يرضيه، فيغضب معه ويرضى."[14]

وقد عرضت بنت الشاطئ القيم الجديدة التي استخلصتها من التراث الأدبي والنقدي بعد أن حررتها من المقاييس النقدية والقيم الأدبية الناقصة والخاطئة التي سيطرتها زمن طويلا.[15] وتعتبر هذه القيم: (أ) قضاء المفهوم الشائع الذي يعتبر المدح أهم أغراض الشعر وغاية القصيدة بوجه عام. نعم، إن المدح لم يكن غاية القصيدة

وعمودها إلا عند المتكسبين بالشعر. (ب) قضاء المفهوم الذي يشير إلى أن الطمع أقوى ميراث الشعر ودوافعه، وإبطال الحكم بأن الرثاء أضعف الشعر لأنه لا يصدر عن رغبة ولا رهبة. (ج) إنكار تتويج النابغة الذبياني أميرا للشعر الجاهلي إذا اعتذر، وذلك لورود آراء مخالفة لهذا الرأي.

إحياء التراث العربي

موضوع التراث من أكبر القضايا التي اهتمت بها بنت الشاطئ في مؤلفاتها ومقالاتها نظرا لأهمية هذا الموضوع خاصة في حياة الأمة العربية المعاصرة. فالتراث –عندها- قضية وجود ومصير، وهو مرآة ما في ذات الأمة العربية وما لها من طاقة وقوة، وهو نور يضيء هذه الأمة العربية معالم طريقها وآفاق طموحها.

ولأهمية هذا التراث، رأت بنت الشاطئ ضرورة تقييم مفهوم التراث العربي. فالتراث لا يعني نطاقا محدودا يحصر في قديم المخطوطات من العلوم الإسلامية والعربية فقط. فهناك ما تركه هؤلاء الأسلاف من ثمار عقولهم في مختلف فروع المعرفة وميادين العلم. كما لا يقصد على بداية العصر الإسلامي، ولكن لا بد أن يمتد إلى الماضي البعيد. وهناك حقيقة لا بد من الاهتمام بها، وهي أن الإسلام منذ العصور المبكرة بدأ يتصل بالحضارات الأخرى من خلال حركة التعريب للتراث الإنساني كله. فيجب إذن أن لا يفوت هذا الأمر من الاهتمام، حيث يمثل كل هذا عنصرا لا يستغنى عنه عند الحديث عن التراث العربي وأبعاده ومحاولة إحيائه. قالت بنت الشاطئ: "وقد يبدو هذا المفهوم الشامل لتراثنا غريبا علينا، لم يكن كذلك في القرون الإسلامية الأولى حين كانت أمتنا في أوج قوتها وازدهارها. ولقد اتسع أفقها الرحب لهذا الشمول، فلم يكن تراث العصر الجاهلي يعني العرب الخلص وحدهم دون الشعوب التي أسلمت وتعربت، ولم تقم حركة جمعه وتدوينه على أيدي الذين ينتمون أصولهم وأنسابهم إلى الجزيرة العربية وحدهم، وإنما شارك فيها بالقدر الأكبر من دخلوا الإسلام وأظلهم لواؤه. كذلك لم تقف حركة إحياء التراث العلمي لشعب الدولة الإسلامية الكبرى، واتسعت فاستوعبت تراث اليونان عن وعي يدرك أن الفكر اليوناني لم يبدأ من نقطة الصفر، وإنما سبقته حضارات شرقية رائدة عريقة أعطته ميراثها، كحضارة وادي الرافدين والهند ... وما من ريب في أن هذا الشمول كان مظهرا لوعي الأمة لذاتها قدر ما كان مهيئا لدورها القيادي الحضارة الإسلامية.[16]

وفي هذا الصدد رأى عفت الشرقاوي أن مفهوم التراث العربي لا يجوز أن يتصور في إطار فكرة العروبة بالمعنى العنصري. وقد ألفتت هذه الحقيقة نظر مؤلف عظيم مثل ابن خلدون، فكتب في مقدمته يشيد بفضل العجم في نشأة هذا التراث، مؤكدا أن من الغريب الواقع أن حملة العلم في الدين الإسلامي أكثرهم من العجم. ومن هنا كان اكتشاف خصائص ثقافية مشتركة لتراث المنطقة العربية أو المنطقة الشرق أوسطية، سواء كان قد تم إنجازه عن إسهامات فارسية أم عربية أم تركية، صح له أن يطلق عليها اسم العربية، لا بالمعنى العنصري الخالص، ولكن بحسبان أن العرب هم أحد العناصر المؤثرة في هذه الثقافة والمشكلة لتكوينها الوجداني ورؤيتها التاريخية والوجودية.[17]

هذا وإن كنا قد أشرنا إلى التراث بمفهومه الشامل، فإننا لا نقصد تفصيل الكلام عنه في كل جوانبه. إن الإشارة السابقة إنما كانت بمثابة التنبيه إلى الموقف الذي ينبغي أن نتبناه أو نتخذه عندما نتعامل مع هذا التراث.

إن ما يلفت النظر في عرضنا السابق هو أن الأمة العربية الإسلامية بدأت بالفعل عملية الانفتاح على الثقافة الإنسانية في بناء حضارتها وتراثها، فكأن هذه الإشارة هي نقطة توجه إلى الأمة العربية الإسلامية اليوم إلى ضرورة اتخاذ الموقف نفسه في حضارتها اليوم، بمعنى أن حركة الإحياء في التراث لا بد أن تصحبها حركة الانفتاح على الغير. وإن الحركتين معا هما اللتان تولدان الحضارة الجديدة المنشودة في كافة المجالات الجديدة، ومنها المجال والأدبي. إن تاريخ الأدب العربي قد أكد ضرورة هذا الانفتاح، حيث استفاد الأدب العربي من الفكر الإسلامي ومن الثقافات والحضارات الأخرى غير الإسلامية. كما أن الانغلاق الذي حدث في الحكم التركي والمماليك سبب في تخلفه إلى أن ظهرت النهضة في العصر الحديث بفضل هذا الانفتاح.

ومن هنا، إن ما نقصد بـ "إحياء التراث العربي" هو محاولة تخطيط النهضة الأدبية والنقدية من خلال عنصري الأصالة والمعاصرة؛ الأولى ركيزتها التراث، والثانية روحها الانفتاح والتطور والتجديد.[18]

نرى بعد هذا أهمية الإشارة إلى ما نقصد بالأصالة والمعاصرة بمعناهما الدقيق والشامل، خاصة من خلال رؤية بنت الشاطئ إلى جانب آرائها الأخرى التي تتصل بالموضوع الذي حددناه. فقد رأت بنت الشاطئ ضرورة تحرير المفهوم الشائع لمعنى المعاصرة في مجالها الزمني، لأن المفهوم دخله سوء الفهم والتفسير في عالم الأدب العربي، وهو الاهتمام بالحاضر وحده دون التفات إلى الماضي القريب أو البعيد. إن اليوم –في رأي بنت الشاطئ- إنما هو امتداد لجذور ضاربة في الماضي، فلا يمكن إهماله. ومن هنا كانت حياة الأديب المعاصر بوجدان زمنه، ليست موضع جدال ومناقشة، ولا يمكن أن يكون مثار خصومة أو خلاف. إن هذا الوجدان العصري مشحون بميراث ماضيه بحيث لا يمكن عزله أو بتره منه. وقانون الوراثة يحتكم في حياة كل كائن حي، ماديا أو معنويا."[19] ومن هذا المنطلق قالت بنت الشاطئ: "وأعتقد أن الأديب الذي يفقد اتصاله بتاريخ قومه وتراث أمته، لا يصلح بحال ما أن يعبر عن وجدانها المعاصر، لأن فقدان وعيه لشخصيتها يجعله أجنبيا عنها غريبا عليها، لا ينتمي إليها إلا الانتماء الرسمي الذي يشبه انتماء الطارئين عليها من المستوطنين والدخلاء."[20]

نلاحظ هنا أن بنت الشاطئ تفهم المعاصرة بمعنى الاهتمام بالأمور العصرية دون إهمال العنصر التراثي. فالعنصر التراثي هو دائما بمثابة قوام في اتخاذ أي فكرة لمصلحة الحياة العصرية التي نواجهها. هذا يعني أن المعاصرة هي التراث الأصيل الذي تنبع منه الأصالة، وفي نفس الوقت ينتج معنى المعاصرة عند التعامل مع هذا التراث في أي قضية طرأت على الساحة. إذن نتساءل: أين الانفتاح الذي أشرنا إليه من قبل؟ ومن المتفق عليه أنه يمثل إحدى دعامتي النهضة الأدبية.

إن هذا الأمر لم يغب عن ملاحظة بنت الشاطئ، حيث إن الانفتاح –أو التطور كما أحبت أن تستخدم هذه الكلمة- مطلوب في الأدب العربي، لأن ظروف حياة الأمة العربية نفسها هي التي تفرض على جلب الجديد إلى هذا التراث، ولأن الأدب العربي عندما يقف عند نقطة التقليد والنقل والتبعية دون أن يتجاوزها إلى الإبداع والابتكار والتنمية، فإنما يقضي على نفسه بالجمود والعقم. إن التاريخ نفسه يؤكد هذا المنطق حيث إن الخلود الذي تتمتع به تلك الأعمال الأدبية العظيمة إنما كان بفضل أصحابها الذين آمنوا بقيمة الإبداع وعدم التقليد، منهم البارودي وشوقي وغيرهما.

لكن التطور والانفتاح عند بنت الشاطئ لا بد أن ينطلق من التراث نفسه غير منعزل عنه فضلا عن التحرر منه. قالت بنت الشاطئ: "منطلق التطور يفرض أن يضيف عصرنا الأدبي جديدا. فسذاجة ما بعدها سذاجة أن يتصور بعضنا أن تطور أدبنا المعاصر يعني أن يبدأ منطلقه بمعزل عن ميراث ماضيه. فجديدنا لا يمكن يقوم على هباء، أو أن يخطو في فراغ تائه ليس فيه إشارة إلى معالم خطوتنا السابقة على الدرب ... وهناك من يدعو إلى التحرر تماما من أثقال تراثنا، على أن نملأ الفراغ بنماذج فنية ننقلها من الأمم التي سبقتنا على الطريق، وينسون أن الآداب الوافدة إذا جاءت على فراغ وخلاء، لم تجد على وجوده شيئا ذا بال، وإنما تفرض علينا أن نعيش بوجدان مستعار. والأمة تستطيع أن تنقل الثقافة والعلم، كما تستعير ما تعوزها من ضرورات الحياة المادية، لكنها لا تستطيع أبدا أن تحيا بمزاج غريب مجلوب ووجدان أجنبي دخيل."[21]

وعلى أية حال، يجب على الأدب العربي ونقده أن يأخذ هذا المفهوم الشامل لمعنى الأصالة والمعاصرة، لأنهما –فعلا- تقومان بدور عظيم في نهضة الأدب والنقد عبر العصور، بما في ذلك العصور التي مرت عليها الأمة العربية والإسلامية وتراثها وحضارتها. ولأهمية قيمته في حياة هذه الأمة، فلا بد من وجود العناية به من قبل هذه الأمة عامة، ومن الجهة المعنية والأجهزة الحكومية خاصة.

اللغة والقومية

أدرك بعض اللغويين منذ وقت مبكر العلاقة الوثيقة بين اللغة والقومية. ولعل اللغوي الألماني هودر هو أول من نبه في العصر الحديث إلى أثر اللغة في تكوين شخصية الأمة. كان ذلك منذ أواخر القرن الثامن عشر؛ وهي ذاتها العقبة التي شهدت ميلاد القوميات الكبرى: الفرنسية والإنجليزية والأسبانية، إثر سقوط الدولة الرومانية. والحق أن العرب لم ينظروا إلى لغتهم على أنها محض وسيلة للاتصال، بل كانت العربية عندهم روح قوميتهم وشعار تميزهم عن قوميات أخرى كالروم والفرس. كذلك كانت الوحدة اللغوية نواة لفكرة القومية العربية، منذ أن لهج بها عبد الرحمن الكواكبي (1849-1902) في كتابه المعروف؛ أم القرى، حتى اليوم. ولعل من الأدلة على الوعي المبكر بأثر الوحدة اللغوية في الوحدة الوطنية والقومية، ما استشعرته قيادة الثورة العرابية من تغير المواقف فأصدرت قرارها الرسمي بإيقاف جريدة التنكيت

والتبكيت، من عددها التاسع عشر (1881/10/13)، وهي التي أصدرها عبد الله النديم (1845-1896) بالعامية، لتحل محلها جريدة الطارق، ناطقة بلسان الأمة الموحد.[22]

كانت كتابات النديم لها مكانتها في دراسة القضية اللغوية في تاريخ الفكر العربي الحديث، وذلك لأنه أول مفكر طرح موضوع تحديث اللغة برؤية اجتماعية. كان النديم قد أصدر ثلاث صحف، وهي: التنكيت والتبكيب، والطائف، والأستاذ. صدر العدد الأول من جريدة التنكيت والتبكيت في 6 يونيو 1881، بمقال بعنوان: إضاعة اللغة تسليم للذات. ونشرت مجلة الأستاذ منذ عددها الأول 24 أغسطس 1892 حتى عددها الأخير 13 يونيو1893 مقالات كاملة في القضية اللغوية، إلى جانب أن في المقالات والأخبار الأخرى إشارات إلى قضايا لغوية. وهذه الموضوعات اللغوية كتبت برؤية سياسية وطنية وتناولت القضية اللغوية في مصر بصفة خاصة ولم تتناول جزئيات صرفية أو نحوية.[23]

ظهر اتجاهان عند المهتمين بالقومية العربية وهم يبحثون عن المقامات لهذه القومية:

- الأول: ترجع القومية إلى أصلين كبيرين؛ الوحدة اللغوية والاشتراك في التاريخ. فالوحدة اللغوية هي أساس وحدة الشعور واالتفكير والعواطف في الأفراد والجماعات، والاشتراك في التاريخ هو أساس القرابة والترابط اللغوي. وهذان الأصلان هما البعدان اللذان تميزان أمة عن أخرى وتعطيان القومية حقيقة ووجودا وكيانا مستقلا.
- الثاني: تذهب القومية إلى التوسع في تعداد العناصر والصفات المشتركة التي لو اجتمعت لمجموعة بشرية أعطتها اسم الأمة وحققت لها معنى القومية. وأصحاب هذا الرأي كسابقهم يعدون في مقدمة تلك العناصر وحدة وحدة اللغة، ثم يضيفون عناصر أخرى.

لكن هناك حقيقتان مهمتان أساسيتان لا خلاف فيهما:

- الأولى: إن تلك المقومات متحققة في الأمة العربية التي تقنط الوطن العربي الأكبر. فهي أمة تمثل -النظم الإنسانية الحاضرة وتصوراتها السياسية- قومية واضحة المعالم مكتملة الخصائص محددة الأطر التاريخية والجغرافية، توافرت فيها وحدة اللغة والتراث والتقاليد والمثل، وتمازجت فيها الأنساب والسلالات، وتعايشت فيها النحل والعقائد، وربط بينها الاشتراك في الأهداف والمصالح والتطور الحضاري.
- الثانية: إن الركن الأساسي في بناء هذه القومية هو اللغة العربية الفصحى التي تمتاز من لغات العالم الكبرى تاريخها الطويل المتصل وثروتها الفكرية والأدبية الخصبة وحضارتها الإسلامية التي وصلت قديم الإنسانية بحديثها وقيمها الروحية والأخلاقية والاجتماعية النابعة من الرسالات السماوية الكبرى.[24]

مما سبق تبينت أمامنا أهمية موقف اللغة بالنسبة إلى القومية. فاللغة هي الأساس بين هذه المقومات في بناء القومية. لكن من جانب آخر، كانت القومية هي الأخرى لها أثرها على اللغة ولها دورها الفعال في تطوير اللغة.

فاللغة مركز الدعوة إلى القومية. فهي التي تهب الفرد انتماءه الحقيقي إلى مجتمعه القومي، وهي التي تجعل لكل مجتمع قومي كيانه الثقافي والحضاري الذي يميزه من من سائر القوميات. من أجل ذلك، يمكن القول بأن الحدود التي تستحق أن تكون حدودا طبيعية فاصلة بين مختلف القوميات هي تلك التي ترسمها اللغات. إن ملازمة اللغة للقومية هي التي مهدت للقول بأن اللغة المشتركة تعد تعبيرا آخر لما يسميه السياسيون بالقومية. [25] هذا من جانب. ومن جانب آخر كانت القومية في جوهرها شعورا جماعيا بكيان موحد قوامه الأصيل هو اللغة. وهذا الشعور يترك آثاره في شعور المرء نحو اللغة التي تجعل عضوا في جماعته القومية. فللنهضة الوطنية والقومية آثار واضحة في الاستعمال اللغوي ولها آثارها في تغيير أسلوب الصحافة بخاصة، ومن أسلوب التعبير الكتابي والكلامي بعامة. ومع النهضة القومية العربية في الخمسينيات غلب الشعور القومي كلمات عربية فصيحة على نظيرها الدخيلة. وقد أنتج الخطاب القومي قوالب لغوية جديدة اقتضاها مطلب التغيير عن الوجود القومي العربي في أزمنة بعينها. كما شك أن تغير المرتكزات الأيدولوجية لمبدأ تحقيق الوحدة العربية، قد ترك أثره في التحول من خطاب قومي تقليدي إلى خطاب قومي وظيفي. من هنا يتبين أن النهضة القومية ليست تحقيقا لمطالب إنسانية، وتعبيرا عن تغيرات في النظم الاجتماعية فحسب، وإنما تصحبها وتنتج عنها نهضة لغوية سواء كانت على مستوى تطور الدلالات أم على مستوى تطور التعبيرات والأساليب.[26]

ومن هذا الشرح الوافي في العلاقة بين اللغة والقومية ومدي التفاعل بينهما، حيث إن القومية هي الشعور المعنوي لدى أي مجتمع وله رغبة في تحقيقها في العالم الخارجي، فإن اللغة هي أداة لتعبير هذا الشعور. أما الآن فحان موعدنا مع موقف هذا الثنائي؛ اللغة والقومية، عند بنت الشاطئ، حيث إن السؤال المطروح هو: ما موقفها من هذه الثنائية؟

لم تعط بنت الشاطئ لهذه القضية مساحة معينة تتكلم فيها عنها، وإنما عرضت ضمن قضايا أخرى تتعلق باللغة العربية وعلاقتها الحتمية بالحياة اليومية في العالم العربي. إن عدم إعطاء المساحة لها لا تدل على عدم اهتمامها بها أو عدم أهمية هذه القضية بالمقارنة مع القضايا الأخرى، بل عرضتها ضمن القضايا الأربع التي أشارنا إليها من قبل.[27]

رأت بنت الشاطئ أن اللغة العربية منذ الجاهلية أصبحت وعاء اتخذت فيه كل القبائل في الجزيرة العربية، وكانت الأقطار العربية –قبل الإسلام- خضعت نحو ألف عام للحكم الأجنبي وتعاقبت على شعوبها الرومان والفرس واليونان في أدوار تاريخية واحدة أو متعاقبة، فرفضوا عليها لغاتهم وعقائدهم وقومياتهم وأعرافهم، ثم مضوا جميعالم يتركوا هنا قومية فارسية أو رومانية أو يونانية ... ثم جاء الإسلام، فكان التحول الذي لا يعرف التاريخ له مثيلا ... وإلى المشرق، خرج العرب المسلمون من

جزيرتهم فاتحين. ومن المشرق خرجت كتائب الفاتحين تحمل لواء الإسلام إلى أقطار المغرب.[28] وترى بنت الشاطئ أن القومية العربية قد مضت عليها أربعة عشر قرنا، وهي عروبة صريحة مشتركة رغم كثرة الجدل حولها. قالت بنت الشاطئ: "وأيا ما تختلف أصولنا القديمة، فنحن عرب مستعرب، رسخت فينا العربية على تتابع أجيال طوال، منذ أظلنا لواء الإسلام وجمعتنا أمة واحدة.[29]

وفي قضية الفصحى والعامية، نرى وجهة نظر متميزة قدمتها بنت الشاطئ في هذه القضية، حيث نرى فيها وضوح العلاقة بين اللغة –بثنائيتها- مع القومية. والخلاصة أن بنت الشاطئ لا ترى هذه الثنائية سوى ظاهرة طبيعية تشهدها أية لغة في العالم. ومن هنا أعطت بنت الشاطئ كلا منهما حقهما؛ فالفصحى لها دورها في بناء القومية العربية، كما أن للعامية –أيضا- دورها المماثل في الأمر. سجلت بنت الشاطئ أن قادة اليقظة ظلوا على موقفهم من تأييد استخدام العامية في الصحافة الشعبية لتوعية الجماهير. وظل عبد الله النديم يثير الوجدان الشعبي والضمير القومي بمقالاته الثورية في جريدة التنكيت والتبكيت، حتى إذا تمت التبئية الثورية وجندت قيادة الثورة العرابية عبد الله النديم ليكون الناطق الصحفي بلسانها، اقتضى الموقف أن يعدل عن العامية إلى الفصحى. هنا، أيدت بنت الشاطئ الفكرة التي تشير إلى أن الظروف هي التي تقتضي إلى هذه العامية لتوعية الشعب وحماية وجدانه من الغفلة والتحذير.[30]

ولعل أكبر معركة سجلها بنت الشاطئ تلك المعركة التي دارت بين عبد الله النديم وبين أمين شميل، عندما ظهرت فكرة استبدال اللغة العربية باللغة الأجنبية. كان عبد الله النديم من جبهة حماة اللغة العربية والقومية، وكتب في العدد الثاني من جريدة التنكيب والتبكيب مقالا عنوانه: إضاعة اللغة تسليم للذات، وذلك ردا على أمين شميل الذي نادى إلى أن يتخلى العرب عن لغتها؛ فصحى كانت أم عامية، إلى لغة أجنبية، لأن العربية – في رأي الأخير- لا تستطيع أن تساير العلوم بعد أن تقدمت العلوم والحضارة الإنسانية. كان تفسير وتحليل بنت الشاطئ في هذا الحوار والمعركة يدلان على غيرتها الكبيرة على هذه اللغة وتلك القومية. قالت بنت الشاطئ: "وهذا الحوار بين النديم وشميل يكفي هنا لإعطاء فكرة عن أبعاد المعركة وأسلحة الفريقين فيها، لكي نتابع قضية اللغة العربية والعلوم الحديثة، فنرى أنه بقدر ما رفض الضمير القومي التخلي عن لغة الأمة، عجز عن التحدي لفرض اللغة العربية على المجال العلمي، وقد عزلت تماما عن هذا المجال، حتى اعترف الوطنيون أنفسهم بقصورها على أداء العلوم الحديثة ما لم تبذل جهود مخلصة لعلاج هذه القصور.[31]

وبهذا المعنى أيضا؛ إضاعة اللغة إضاعة للذات، كافح الشعب الجزائري ضد هؤلاء سارقي اللغة من الأجانب المستعمرين. وفي هذا الميدان، لم تترك بنت الشاطئ إلا وتسجل هذه المعركة، بل دخلت المعركة بالفعل عندما شاركت في مؤتمر المعلمين العرب في دورتها الثالثة بالجزائر، أغسطس 1973.[32] هذا إلى جانب إيمانها القوي بأن التعليم العربي لا بد أن يكون محل اهتمام كل العرب نظرا لدوره الفعال في قضية القومية.[33]

مما سبق، يمكن القول بأن الانتماء اللغوي وقوته من أصالة الهوية القومية، وقوة الانتماء بقوة الاستمساك بالعروة الوثقى؛ اللغة القومية. كما يمكن القول بأن اللغة مرآة الهوية. فاللغة تاريخ الأمة الناطق وأهم العناصر البنائية لثقافتها والأداة العظمى من أدوات تعبيرها عن رؤيتها للعالم. ففي ضوء هذا كله ينبغي إقامة كل جهد إيجابي من أجل اللغة، على أنه جهد قومي، لما يكمن له من آثار إيجابية في دعم شخصية الأمة ثقافيا وخضاريا.

في النهاية رأت بنت الشاطئ أن مفهوم الاستمساك باللغة بوصفها مرآة للقومية، وفي استمساكها انتماء للعرب. إلا أن الأمر لا ينتهي إلى هذا الحد، حيث إن هناك ما هو أعظم من ذلك، وهو أن الحفاظ على اللغة العربية والاستمساك بها يعني الحفاظ والاستمساك بلغة القرآن الكريم ولغة السنة النبوية ولغة التراث العربي الأصيل.

لغة الأدب الشعبي

إن قضية لغة الأدب عموما تظهر نتيجة الصراع والجدل بين اللغويين والأدباء على السواء حول الأداة الأحق والأصح للتعبير عن الأفكار والشعور في الأعمال الأدبية. فالمفاضلة بين الفصحى والعامية في أداء هذه الأعمال تأخذ شكلا خاصا يهدف إلى النتيجة الأمثل في جميع المستويات الأدبية. وقد انقسم هؤلاء أمام هذه المشكلة إلى جبهة موالية للفصحى ومعهم حججهم في تفضيلهم لها، وإلى جبهة موالية للعامية ومعهم حججهم أيضا في تفضيلهم لها. ولكن هناك نقطة التقاء بين هؤلاء اللغويين والأدباء، وهي ما تتمثل في الأهداف المشتركة بينهم حول خدمة اللغة العربية أولا وأخيرا، بصرف النظر عن الانحراف الحاصل أثناء بذل جهود عند هؤلاء العلماء. قالت بنت الشاطئ: "لبثت زمانا، أرى أن الإلحاح في الحديث عن العامية والفصحى، قد يسيئ إلى العربية من حيث يراد به النفع، لما في هذا الإلحاح من ترسيخ للعقدة التي نشكوها من ثنائية اللغة، وتضخيم لمشكلات تعدد اللهجات المحلية في الوطن العربي الكبير."[34]

وعلى الرغم من رأيها الحاسم في هذه القضية، لا نرى أي مانع من أن نورد آراء بعض اللغويين والأدباء نحو الفصحى والعامية في أيهما الأصلح في أداء الأعمال الأدبية حيث إن حجج أنصار الفصحى ترجح كفة الفصحى لأسبا[35] منها:

- الأول: سبب لغوي، حيث إن الفصحى غنية بمفرداتها وتراكيبها وأساليبها، كما أنها أثرى في تنويع الدلالات وتعميقها من اللغة العامية المحدودة والمتصلة بالواقع والمحسات، كما أن الكتابة بالعامية لا تمكن الأعمال من الاستقرار عبر الزمن.
- الثاني: سبب ديني، حيث إن الحفاظ على الفصحى حفاظ على القومية العربية وعلى انتشار الأعمال الأدبية. أما الاقتصار على العامية فإن الكتابة بها لا تجاوز حدود الوطن الواحد.

أما أنصار العامية فكانت حججهم في تفضيل العامية تكون لأسباب[36] ، منها:

- الأول: إن العامية أقدر على التعبير عن المشاعر والأحاسيس، لأن الإنسان بها يفكر ويتعامل وشئونه بالعامية.

- الثاني: جعل الشخصيات تتكلم في العمل الأدبي كما ينطق إنما يفضي على هذا العمل صفة الواقعية، ذلك أن تدخل الكاتب في حوار الشخصيات بتحويل حوارها العامي إلى حوار فصيح يؤدي إلى فقدان العمل الأدبي لواقعيته.
- الثالث: إن اللهجات العامية أكثر قدرة على توضيح ملامح الشخصيات إذ تتكلم كل شخصية بلسانها عن حالتها.

نقول: بصرف النظر عن هذا الانقسام، وبصرف النظر عن قوة الحجج عند الأول وضعفها عند الثاني أو العكس، فإن ما يهمنا في المقام الأول هو الملاحظات الآتية:

- الأولى: وضوح رأي بنت الشاطئ في هذا الموضوع.
- الثانية: تعليق محمد غنيمي هلال على هذا الموضوع بقوله: "لا ينبغي بحال من الأحوال أن نتساءل عن الأصلح في هذا الموضوع في لغة المسرح –بل نقول في جميع المستويات الأدبية- ونتفاضل بين الفصحى والعامية، تعللا بأن العامية قد تكون أقدر على تصوير بعض الحالات النفسية أو على التعبير عن الدلالات الاجتماعية أو ما يسمي بواقعية الأداء، فهذه الحجج وما إليها يقصد بها الانتصاف للعامية من الفصحى وفيها خلط بين نوعين من الأدب مختلفين في جوهرهما وجمهورهما."[37]
- الثالثة: وإذا انتقلنا من حدود لغة الأدب عامة، وألقينا الضوء على لغة الأدب الأقل دائرة والأكثر خصوصية، وهي لغة الأدب الشعبي، فسنجد حقيقة لا يمكن بحال من مالأحوال أن نتجاهلها، وهي أن الأدب الشعبي ضرورة وجدانية لا غنى عنها، لأن التحدث إلى عامة الشعب بلهجاتها وبأسلوبها هو مناط التأثير فيها والانفعال بها والتجاوب معها. إنها حقيقة تجري مع حقيقة أخرى هي أن أدب الفصحى هي مناط الوحدة اللغوية للعرب، بما يعني أن في الأدب من وحدة مزاج مشترك ووجدان عام.

ومن هذه الفكرة، انطلقت بنت الشاطئ إلى مناقشة قضية لغة الأدب الشعبي، حيث قالت: "ولست أقصد بحديثي الآن إلى أن أعود فأقف عند هذا الخلاف المثار، وإنما هي محاولة أريد بها أن أعرض القضية من زاوية خاصة تكشف عن تناقض عجيب في موقف الهيئات الرسمية من العامية والفصحى، تؤكد حاجتنا الماسة إلى تخطيط ثقافي تسير به جهودنا في خطوات متناسقة متكاملة، ولو لا هذا التقاعد لما تعقدت الأزمة وجاوزت في تعقدها الحد الذي كان يجب أن تقف عنده."[38]

إن التناقض الذي أشارت إليه بنت الشاطئ يتمثل في النقطتين الآتيتين[39] :

- الأولى: الاتهامات المتبادلة بين أنصار الفصحى والعامية؛ فالأول يقول: إن الترخص في استعمال العامية في الأدب خيانة للوحدة العربية وكفر بلغة القرآن الكريم. ويقول الثاني: إن الإصرار على استعمال الفصحى وحدها في الأدب عزلة وجدانية عن الشعب وتعطيل للتأثير فيه والتجاوب معه والاتصال به.
- الثانية: إن الأمر يزداد في تعقده وتناقضه لأن موقف الحكومة والهيئات الرسمية الذي لم يتضح بعد في احتواء الأمر وتسويته. إن الدولة (المصرية –مثلا-) قد اعترفت بالأدب الشعبي في هذه المرحلة الجديدة من التاريخ العربي وبلغ من عنايتها به أن استحدثت كرسيا للأدب الشعبي في جامعة القاهرة بمصر اعترافا منها بهذا الأدب وتقديرا لخطره. كما أن لجان المجلس الأعلى للفنون والأدب تخصص للأدب

الشعبي في وزارة الثقافة (في الحكومة المصرية) إدارة خاصة بالفنون الشعبية، ومنها الأدب الشعبي. ولكن من جانب آخر كانت لجنة النشر بمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب تحجب جائزة الدولة التشجيعية للقصة عن بعض القصص الممتازة العامية في حوارها. وهذا يعني الإهمال والتفريط في جانب من جوانب الإبداع التي لها شأن كبير على مستوى العالم الإبداعي نفسه، وعلى مستوى التأثير على الجمهور خاصة. وقد قررنا من قبل بأن للأدب دوره في توصيل القيم إلى الجمهور.

أمام هذا التناقض وتلك الأزمة، طرحت بنت الشاطئ الرأيين الآتيين، يكون أحدهما الفيصل في هذا الموضوع.[40]

- الأول: إن كانت العامية مرضا ورجسا، فإن أي ترخص في استعمالها جريمة في حق الوطن، وأي اعتراف بأدبها الشعبي أو عناية بالتراث العربي منه خيانة وثغرة في بناء النهضة، ولنا أن نتصور عندئذ فداحة الإثم وشناعة المفارقة إذ سمعنا شيوخ الإسلام وزعماء الوطنية يتكلمون في حياتهم اليومية بهذه العامية الملعونة.
- الثاني: أما إذا كانت الدولة قد اعترفت في الأدب الشعبي الذي تشجعه وترعاه وتستنفذ تراثه من الضياع، وهي تقدر أن العامية أداة التأثير الوجداني في الشعب ووسيلة اتصال به ونفوذ إليه وطريق الفهم لمزاجه، فقد وجب أن توضح الهيئات الثقافية المسئولة وقفها من الأدب الشعبي حتى لا يظن ظان أن عامية الحوار وصمة عار في القصة، وأن الملحمة الشعبية صيغت زجلا، لم تعد أهلا لرعاية لجنة الفنون الشعبية في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

خاتمة

إن القضايا التي أثارتها بنت الشاطئ والرؤي التي تبنتها أكدت لنا أن هذه العربية في حاجة ماسة إلى جهود أبنائها من اللغويين والأدباء والنقاد في تخطيط لغوي يهدف إلى الحفاظ عليها والارتقاء بها والعودة بها إلى ما كان تتمتع به في عصورها المزدهرة. فاللغة كما أشارت بنت الشاطئ إنما هي معيار نهضة القوم وركوده، لأن اللغة هي الوسيلة الأولى في تسجيل ما لدى الأمة من أفكار وآراء، وهي أداة تحفظ بها تراث الأمة وثقافتها وحضارتها عبر العصور. واللغة مرآة لشخصية أية أمة ومرآة لهويتها. فمن خلال هذه اللغة تستطيع الأمة العربية أن تتواصل بها بعضهم بعضا لتخطيط مصالحهم ومنافعهم. ولكن الأهم من بين هذه الأمور –عند بنت الشاطئ- هو أن اللغة العربية تتصل بالهوية الدينية الإسلامية التي تتمثل في لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ولغة التراث الإسلامي الأصيل.

ومن هنا، رأينا كيف أصرت بنت الشاطئ على التأكيد في ضرورة البحث والدراسة على التراث الأدبي والنقدي، لأن هناك رواسب في القيم والمقاييس التي سيطرت واحتكمت الخطاب الأدبي زمنا طويلا. هذا الواقع يدعو إلى ضرورة القيام المستمر بإعادة التفسير والتأويل على هذا التراث الأدبي والنقدي.

وفي هذا الإطار أيضا، وجهت بنت الشاطئ الدعوة إلى إحياء التراث كمنطلق لأية محاولة للتجديد. فالانفتاح على الحضارات والثقافات الأخرى لا بد أن يتأسس على

التراث العربي نفسه، لأن البداية من فراغ إنما يعني إضاعة للهوية والأخذ مما هو أجنبي.

إن اللغة العربية إنما هو قاعدة للهوية العربية والإسلامية. فاللغة العربية هي أساس القومية. وقد رأت بنت الشاطئ أن مفهوم الحفاظوالاستمساك باللغة لا يقتصر على أنها مرآة وقاعدة قومية. فالحفاظ على هذه اللغة والاستمساك بها يعنيان الحفاظ والاستمساك بلغة القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الأصيل.

أما ما يتعلق بالازدواجية اللغوية وعلاقتها بالأدب الشعبي، فإن لغة هذا الأدب يجب أن يكون موضع اهتمام الجهات الحكومية الرسمية حتي لا يكون موقفها غامضا وغير واضح.

الهوامش:

1. أمين الخولي، مشكلات حياتنا اللغوية، القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، 1964، ص2.
2. هيعائشة عبد الرحمن، من رائدات الأدب والنقد العربي والثقافة الإسلامية في القرن العشرين. ولدت في 6 نوفمبر 1913 في دمياط بمصر، وتوفيت في 1 ديسمبر 1998 في القاهرة.
3. جدير بالإشارة إلى أن الباحث قد تناول في مقالة سابقة موضوع الإشكاليات اللغوية التي أثارتها بنت الشاطئ في مجال الدراسات اللغوية والأدبية. والمقالة عالجت بعض القضايا التي تتعلق باللغة العربية والتحديات التي تواجهها في العصر الحاضر، من خلال عرض مواقف بنت الشاطئ من تلك القضايا، مثل: مواقفها من الفصحى والعامية، واللغة العربية وعلوم العصر، والغزو اللغوي ومعركة التعريب، وتعليم اللغة العربية. ويمكن أن نراجع هذه الأمور في: أحمدي عثمان، "قراءة في إشكاليات اللغة العربية عند عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)"، مجلة الزهراء – كلية الدرسات الإسلامية والعربية، جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا، السنة 10 / العدد 1، ص63–68، 1432هـ / 2011م. والمقالة الحالية استكمال لما أثير في المقالة السابقة.
4. بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، القاهرة: دار العارف، ط2، د.ت.، ص13–14.
5. وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، الكويت: عالم المعرفة – العدد 207، 1996، ص7–8.
6. وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص141.
7. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص19 و22.
8. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص24.
9. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص27 و32.
10. وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص144.
11. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص35.
12. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص36 وما بعدها.
13. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص41 و45.
14. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص 51–52.
15. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص53 وما بعدها.

16. بنت الشاطئ، تراثنا بين ماض وحاضر، القاهرة: دار المعارف، ط2، د.ت.، ص 9–10.
17. عفت الشرقاوي، إحياء التراث العربي ودوره في بناء الثقافي المشترك، ضمن كتاب "دور الثقافة في تحقيق الوفاق العربي، لمجموعة من الكتاب، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1998، ص32.
18. أحمد هيكل، في الأدب واللغة، القاهرة: مكتبة الأسرة، 1998، ص32.
19. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص 161.
20. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص 165.
21. بنت الشاطئ، قيم جديدة، ص 188.
22. محمد العبد، اللغة والهوية القومية، ضمن كتاب "الهوية القومية في الأدب العربي المعاصر"، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1999، ص44، وبنت الشاطئ، لغتنا والحياة، القاهرة: دار المعارف، ط2، د.ت.، ص101.
23. محمود فهمي حجازي، اللغة العربية في العصر الحديث؛ قضايا ومشكلات، القاهرة: دار قباء، 1998، ص26.
24. محمد خلف الله أحمد، دور اللغة و الأدب في بناء القومية العربية، ضمن مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد 4، القاهرة: يونيو 1973، ص2 و3.
25. محمد العبد، اللغة والهوية القومية، ص43.
26. محمد العبد، اللغة والهوية القومية، ص45 و46.
27. انظر الهامش رقم 3.
28. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص13 و14.
29. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص25.
30. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص101.
31. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص143 144، ومحمود فهمي حجازي، اللغة العربية في العصر الحديث، ص28.
32. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص163 و179.
33. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص189.
34. محمد العبد، اللغة والهوية القومية، ص46 و50.
35. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص211، يمكن أن نراجع تفاصيل الآراء في، أحمد مصطفى أحمد الأسطل، محمود تيمور وجهوده اللغوية (بحث الدبلوم)، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1998، ص21.
36. يمكن أن نراجع تفاصيل الآراء في، أحمد مصطفى أحمد الأسطل، ص21.
37. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت.، نقلا عن، أحمد مصطفى أحمد الأسطل، محمود تيمور وجهوده اللغوية، ص23.
38. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص211 و212.
39. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص212 و213.
40. بنت الشاطئ، لغتنا والحياة، ص214.

TOWARDS MODERATE ISLAM

ISSN 1412-226x

AL-ZAHRÄ'

JOURNAL FOR ISLAMIC AND ARABIC STUDIES

In This Issue

-
-
-
-
-
-
-

Vol 12 No 2 ▪ 1436 H/2014 M